مفهوم الإيقاع

تشتق كلمة الإيقاع rhythm في اللغات الأوروبية من لفظ rhuthmos اليوناني، وهو بدوره مشتق من الفعل rheein بمعنى ينساب أو يتدفَّق، ويشتق الإيقاع في اللغة العربية من (التوقيع) وهو نوع من المشية السريعة؛ إذ يُقال (وقع الرجل) أي مشى سراعاً مع رفع يديه ومن المعروف أن مشية الإنسان من أهم الأصول الحيوية التي يرجع إليها الإيقاع، والأهم من ذلك هو فكرة الحركة التي تظهر في الأصلين اللغويين العربي واليوناني معاً؛ فالانسياب حركة والمشي بدوره حركة، وفي ذلك دليل على الارتباط الوثيق بين الإيقاع والحركة، ومنذ أقدم العصور أثارت فكرة الإيقاع خيال الإنسان وحفزته على التأمل فإذا به يأتي بالنظرية تلو النظرية لإثبات أن مسار الكون كله عبارة عن إيقاع هائل؛ فالكون من حولنا تدور ظواهره في إيقاع منتظم في دورات الأفلاك، وفي ظهور النجوم والكواكب واختفائها، وتعاقبُ الليل والنهار، وتكرار أوجه القمر، وتَتَابُع فصول السنة، وقد يرتبط الإيقاع بظواهر طبيعية مثل: إيقاع القلب، إيقاع التنفس الخاص بحركة الرئتين، إيقاع الفصول، إيقاع الطقس عامة، ويستعمل الإيقاع أيضا في المجالات الفنية كما في الشعر والموسيقى وفنون الرقص والرسم والنحت، إذن كل ما هو كائن وموجود في جوهره مجموعة من الإيقاعات المختلفة: بسيطة، مركبة، سريعة، بطيئة، قوية، خفيفة، نشيطة، جنائزية، متسارعة...إلخ.

والإيقاع عبارة عن مجموعة من التتابع بين حالتي الصوت والصمت أو النور والظل أو الحركة والسكون أو القوة والإبطاء أو التوتر والاسترخاء.. الخ، ويرتبط مفهوم الإيقاع بالزمن، فإذا كان الجسم الذي يتحرك في الفضاء له مسار معين وموقعه متعلق بالزمن وتحديد سرعته يقتضي معرفة المسافة، فأن الإيقاع مرتبط بالزمن وحده فالقلب الذي يدق لا يقطع أي مسافة والنفَس الذي يدخل الرئتين لا تهمنا منه إلا علاقته بالزمن، وكذلك الشأن بالنسبة لتعاقب الليل والنهار، وتتالي الفصول، ودقات الطبول في الموسيقى، ولكي يزداد معنى الإيقاع وضوحا في الأذهان وجب إضافة فكرة (التنظيم) لتعريف الايقاع لأنها مجموع من اللحظات الزمانية الموزعة وفقاً لترتيب معين، وأفضل وسيلة لتعريف الإيقاع هي تلك التي تجمع بين عنصري الحركة والتنظيم معاً في توافق وانسجام؛ فالإيقاع في أساسه حركة ولكن هذه الحركة إذا ظلت حرة طليقة بلا تنظيم أو سيطرة لا تكون إيقاعاً، ويبرز دور الإيقاع باعتباره نشاطا جماليا في العملية الإبداعية على مستوى الخلق الفني ومستوى التأثير والتلقي، فالإيقاع هو: الناظم الذي يشارك في خلق البنية الجمالية (الأثر الفني) من مادة حسية (حجر، صوت، لون، حركة، جسم) أو روحية تصور مرونة الكلمة) وإن جوهر الإيقاع يمثل النبض الداخلي المنعكس خارجيا في الفعل الإنساني وهو موسيقى الروح الذي يعطي لهذا الكائن النبض المؤلف من سرعة تلقي الإحساس أو بطئه، وعليه فالإيقاع يشكل حالة من السعي نحو تنظيم الحركة أو تنظيم الأصوات عن طريق تكرارها وتعاقبها بوحدات زمنية محددة.

والواقع أننا حين نعرّف الإيقاع بأنه تنظيم للحركة خلال الزمان إنما نعني بذلك أن الإيقاع يقوم بإدخال تنظيم معيَّن على ذلك السيل المتدفق من الحركة الزمانية، بحيث نشعر في الإيقاع بأننا نتحكم على نحوٍ ما في مجرى الزمان وننظمه، ونحن نشعر جميعا بالزمن الحي في حياتنا بمختلف الأحوال الجسمية، ففي حياتنا الانفعالية نحس بانقضاء الزمان على نحوٍ متفاوت تبعا لأحوالنا الوجدانية المتباينة؛ فنفاد الصبر يطيل الزمان، بينما السعادة تقصره وقد يضيع إحساسنا بالزمان تماماً في حالات النشوة، هذا النوع من الزمان الانفعالي كثيراً ما يتحكم في طريقة استجابتنا للموسيقى وتجاوبنا معها، ويظهر تأثير هذه الاختلافات الذاتية في نظرتنا إلى عامل السرعة في الموسيقى (التمبو Tempo) هذا العامل الذي يشير الى نوع السرعة المطلوب أداء القطعة الموسيقية بها، ويرى البعض أن إيقاع السرعة

يختلف تبعاً للأمم، فالألماني أبطأ من الفرنسي، والفرنسي أبطأ من الإيطالي، وهكذا، ويعتبر الزمان عنصر أساسي في تحديد طبيعة الإيقاع الموسيقي، وهو القالب الذي يُصاغ فيه اللحن فمن المستحيل تصوُّر الموسيقى بلا زمان ودون ذاكرة، من هنا كانت الموسيقى في نظر الفنانين والمفكرين أقرب الفنون كلها إلى الطابع الروحي؛ وأقوى صلةً بعالم الإنسان الداخلي الباطن من بقية الحواس حيث يعتبر الإيقاع الموسيقي أقوى عناصر الفنون تعبيراً عن الزمان فيه.

إن ظاهرة الإيقاع في العمل الفني تستنبط مقوماتها الجوهرية من فعل التكرار المتتابع للوحدات الإيقاعية وترتيبها بسياق خاص من قبل مبدع العمل، فالإيقاع عنصر أساسي في العمل الفني على مستوى إرساله وتلقيه فهو عبارة عن (تكرار وحدات حسية سمعية أو مرئية أو لمسية أو شمية أو ذوقية تفصل بين مفرداتها وبين الوحدات التالية فواصل زمنية تتولد تلك الوحدات في الكائنات الحية وفي الجمادات بفعل تلقائي أو بفعل مقصود عن وعي أو من غير وعي لتحدث تأثيراتها العامة والخاصة فتتفاوت في قوتها نسبيا) وبما أن الفن المسرحي تتمظهر فيه التنويعات الإيقاعية لاحتوائه على مكونات وتركيبات إيقاعية عديدة، ويظهر الإيقاع المسرحي من خلال اشتغال العديد من المستويات الإيقاعية داخل العرض الذي لا يعتمد على الأحادية والبساطة ووضوح الإيقاعات بل يقتضي تنوعه على جميع التركيبات الإيقاعية السمعية والبصرية المنتجة بتكرارها وانسجامها ووحدتها للعرض المسرحي.

الايقاع أساسا هو العامل الذي يعطي الحياة للمسرحية، ومن وظائفه هو الحصول على المزاج الذي يتحدد عن طريق النمط الايقاعي ذاته كما يتوقف أساساً على مكان النبرة وموقعها مثل: عدد الدقات/ نقل انطباع المكان/ تقرير طبيعة الشخصية/ نقل احساس بتغيير المشهد أو المكان عن طريق تغيير الإيقاع/ ربط ودمج جميع أجزاء المسرحية، كذلك يعمل الايقاع على دمج المشاهد الكوميدية في المشاهد المأساوية أو المسرحيات الجادة والعكس بالعكس، لذلك يدعم الايقاع المشاهد الانتقالية والمتوازية ويحتفظ باهتمام النظارة بها ويربطها بالكل، واخيراً يحدد الايقاع توقيت الدخول والخروج وكل الحركات والوقفات وبناء المشاهد ذات الايقاع السريع والبطيء، كما يحدد توقيت الضوضاء التي تأتي من خارج المنصة والموسيقى المستخدمة وغير ذلك من المشاكل، وبما ان لكل مسرحية ايقاعها الاساسي الخاص بها فهناك ضوابط تحدد الايقاع في المسرحية منها:

1- **ايقاع الجمل الواردة في النص ذاته**: هذا عامل التحديد الأساسي، فاذا لم تكتب الجمل في نطاق الايقاع الذي يحتويه الموقف، والشخصيات والمكان وما الى ذلك فأن مشكلة المخرج في مزج الكل في ايقاع ونسق واحد تصبح مشكلة كبيرة، ايقاع الحوار في الكوميديا مثلاً يجب أن يكون واضح المعالم والتحديد ويجب ان يسمح بالتأكيد والتوقيت السليمين.
2- **إيقاع المكان والجو:** لكل مكان أو بلد إيقاعها المميز فإيقاع اللغة الانكليزية يختلف عن الايقاع في اللغة الصينية وعن الهندية بإيقاعها الراقص السريع، كذلك يختلف الايقاع داخل البلد الواحد من القاهرة الى الاسكندرية الى أسوان مع اختلاف اللهجة، مما يجعل النصوص التي تعتمد على ممثلين من بلاد مختلفة هو تحدي للمخرج في ضبط إيقاعه، والايقاع واحد من أهم وسائل تحديد الجو: أوقات اليوم، فصول السنة...الخ
3- **ايقاع الشخصيات:** لا شك ان شخصيات المسرحية لها دور في تحديد الايقاع، فقد يكون تفكير الشخصية بطيئاً أو حركتها أو خطواتها ثقيلة، أو يحدث العكس شخصية ذكية سريعة، خفيفة الظل أو قد تتصف بالعجلة لذا وجب على المخرج الاهتمام بالإيقاع واعتباره أساس العمل المسرحي للحصول على الحياة والروح المسرحية.